التفضيء اللساني: آليات إنشاء الفضاء والتقطيع والإحالة

Linguistic Spatialization: Mechanisms of Spatial Creation, segmentation, and Reference

علي بن شريف مصطفى

جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر، الجزائر، m.alibencherif@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2026/04/19 تاريخ القبول: 2026/05/04 تاريخ النشر: 2026/06/06

ملخص:

يستعرض هذا المقال "التفضيء" بوصفه إجراءً سيميائياً يمنح المكان معناه؛ إذ لا يُعتبر وعاءً محايداً، بل بنية رمزية يصوغها اللسان. تُحلل الدراسة كيفية تشكيل المؤشرات الإشارية وأفعال الحركة والتموضع في هذا العالم، من خلال استحضار الفينوميلوجيا زالسيميائية الغريماسية وإسهامات لوتمان والسرديات الحديثة. والهدف هو الكشف عن أمرين جوهريين: أولاً، أن تشكيل الواقع وتقطيعه لا يتم إلا وفق منطق خاص بكل لغة. ثانياً، أن الاستعارات المكانية ليست مجرد زينة بلاغية، بل هي أدوات تنظم بعمق إدراكنا للزمن والقيم المجردة. ويخلص البحث إلى أنه لا وجود للمكان الإنساني إلا باللغة وفيها.

كلمات مفتاحية:

التفضيء، اللغة، السيميائية، الاستعارة الفضائية، الإشاريات.

Abstract:

This article explores spatialization as a semiotic process that endows space with meaning, treating it not as a neutral vessel but as a symbolic structure shaped by language. By drawing on Kant, Cassirer, Heidegger, and Merleau-Ponty, it analyzes how deictics and motion verbs anchor us in the world. It reveals two fundamental truths: first, that the segmentation of reality follows the unique logic of each tongue; and second, that spatial metaphors are not decorative flourishes but vital tools that structure our understanding of time and abstract values. Ultimately, human space exists only by and through language.

Keywords:

Spatialization, language, semiotics, spatial metaphor, deixis.

1. مقدمة:

تقترح هذه الدراسة تحليلا نسقيا للتفضيء باعتماد منطلقات مختلفة تربط بين الفلسفة والأبستمولوجيا والسيميائية. سنحلل، من أجل تحقيق هذا المطلب، الآليات اللسانية للتشكّل الفضائي داخل اللغة، من خلال مقاربة الأنظمة الظرفية المكانية، وإشاريات déictiques التلفظ، وأفعال الحركة، والتشكيلات الصيغية configurations aspectuelles. سنحاول أيضا أن نبين أن التنوعات الثقافية واللسانية تكشف من جهة عن العرضية التاريخية لتقطيعنا للفضاء ومن جهة أخرى عن ضرورته التعبيرية من جهة أخرى. وسنستكشف في الأخير البعد النصي للتفضيء، مظهرين كيف تخلق الكتابة والقراءة فضاءات محددة.

موضوع الدراسة خاص إذن بالعلاقة التأسيسية بين اللغة والفضاء من منظور سيميائي ولساني وفلسفي. والسؤال المركزي الذي يوجّه تحليلنا هو: كيف تقوم اللغة ببناء الفضاء وما هي الآليات التي توظفها لتهيكله وتمنحه دلالته وِفقا لتشكلات خطابية تؤكد على خصوصيات اللغات الرمزية والإشارية؟

تنطلق هذه الدراسة من مسلّمتين مهمتين: أولاً، الفضاء الدال إنسانياً لا يوجد بشكل مستقل عن اللغة التي تُمفصِله، فهي التي تُنتج عوالمه الفضائية الخاصة التي لا تتطابق بالضرورة مع ما تنتجه لغات أخرى. ثانياً، إن التنوع اللساني الخاص بالتشكيل الفضائي ليس تنوعاً سطحياً في التسميات بل تنوع عميق يمسّ الإدراك والتمثل والفعل.

المنهج المعتمد يجمع بين حقول معرفية متعددة، تندمج كلها في إطار نسقي يدرس الأسس الفلسفية للفضاء، والآليات اللسانية الخاصة بالتفضيء، وامتداداتها المعرفية. لذا سنقوم برصد التشكلات الخطابية للفضاء والتنوعات اللسانية والثقافية، لنخلص في النهاية إلى دراسة الفضاء النصي والفضاء الرقمي والفضاء المعيش في بعده الفينومينولوجي.

يندرج تحليلنا ضمن تقليد فلسفي وسيميائي يعترف للغة بدور تأسيسي. فمنذ المنعطف اللساني في القرن العشرين، تخلى الفلاسفة واللسانيون تدريجياً عن التصور التبسيطي القائل بأن المفردات مجرد ملصقات تُسقَط على أشياء موجودة سلفاً. أكد هومبولدت بدوره أن اللغة

ليست إرغونا *ergon* (منتجاً) بل إنرغيا *energeia* (نشاطاً)، وهي وفق هذا قوة خلاقة وليست عملاً ساكنا[1]. هذه الإنرغيا اللغوية تنطبق بشكل خاص على بناء الفضاء.

2. الأسس الفلسفية للفضاء بوصفه بناء لسانيا

1.2 قبلية الفضاء من كانط إلى الفينومينولوجيا

فرضت مسألة الفضاء نفسها بإلحاح متزايد في الفلسفة الحديثة منذ كانط. ففي كتابه نقد العقل الخالص عرف الفضاء باعتباره شكلا قبليا للحساسية وشرطا لإمكان كل تجربة خارجية. وبحسب تعبيره فإن الفضاء ليس مفهوما تجريبيا مستخرجا من تجارب خارجية [...] بل هو تمثل قبلي ضروري يشكل أساس كل الحدوس الخارجية[2]. لهذه القبلية نتيجتان جوهريتان. الأولى أننا لا نختبر الفضاء أبدا كما هو في ذاته، والثانية أن كل تجربة مُفضَأة spatialisée سلفا، أي قبل أن تقع. مع هذا، فإن هذه القبلية تحتاج إلى واسطة هي اللسان الذي يمنح هذه القبلية الكانطية تحققها التاريخي والثقافي الفعلي. أعاد إرنست كاسيرر، من موقعه الكانطي الجديد، صياغة هذه المسألة باعتماد دلالات الأشكال الرمزية، فالفضاء في تصوره ليس بنية ذهنية كونية ثابتة، بل بناء يتشكل بهيئات تختلف باختلاف الأنظمة الرمزية من أسطورة وفن وعلم ولغة. فليس الفضاء هو الذي يحدد المحتويات اللغوية، بل إن المفاصل اللغوية هي التي تخلق المفاصل المكانية[3].

أدخلت الفينومينولوجيا الجسد في صميم الإشكالية الوجودية بوصفه وسيطا بين الوعي والفضاء. كان موريس ميرلو–بونتي Merleau-Ponty أبرز من أنجز ذلك حين أكد أن الفضاء ليس الوسط الحقيقي أو المنطقي الذي تتموضع فيه الأشياء بل هو الوسيلة التي بها يصبح موضع الأشياء ممكنا[4]. هذه الوسيلة تتضمن اللسان في صلبها، إذ إن الجسد الخاص يسكن الفضاء فعلا، لكن هذا السكن يتمفصل بالمقولات اللسانية التي توجهه وتقسمه وتهيكله. أما النقد الهيدغري فقد ذهب أبعد من ذلك. فبالنسبة لهيدغر Heidegger لا يكمن الفضاء الأصيل في الفضاء الهندسي المتجانس، بل في الفضاء الوجودي للدازاين (Dasein) المحيل إلى الكينونة–في–العالم (In-der-Welt-sein). هذا الفضاء الوجودي يتهيكل بالفهم، والفهم يتمفصل في اللسان، لأن اللسان هو بيت الكينونة (Die Sprache ist das Haus des

Seins)[5]. وفي هذا قطيعة صريحة مع الرؤية التقنية الأداتية والموضوعية للغة التي تختزل اللسان في وظيفته التمثيلية المحضة المبنية على رؤية ميتافيزيقية[6].

2.2 البنيوية واعتباطية التقطيع الفضائي

مبدأ اعتباطية الدليل اللساني الذي أسسه فرديناند دو سوسور مهم للغاية لدراسة الفضاء، إذ لا يوجد سبب طبيعي يبرر تقطيع اللغة للحيز وفق دلائل خاصة في حين تستعمل لغات أخرى تقطيعات مختلفة جذريا. أهمية سوسور بمكن أيضا في تسليمه بأن اللغة نظام من الفروق دون مصطلحات إيجابية[7]. هذه المُسلَّمة أسَّست لنظرية القيمة اللسانية التي أفادت منها السيميائية أيما إفادة[8]. مع أنها تبدو تجريدية في ظاهرها، إلا أن لهذه المُسلَّمة أثر بالغ في تصورنا للفضاء. فالمفردات الفضائية لا تحيل على أجزاء موضوعية من الفضاء الخارجي، بل إلى مقطوعات تتحدد بعلاقتها مع غيرها داخل النظام اللساني القائم على أساس تباييني. من هنا لا وجود لمفهوم [فوق] إلا بالتقابل مع [تحت] وبالتموضع إزاء حيز معين وبفارق يتوسط الوضعين. الأمر نفسه ينطبق على [داخل] المقابل لـ[خارج] وعلى [قريب] الذي لا يتعين إلا بمقابلته مع [بعيد] سواء كانت المسافة مقيسة أو متدرجة. هذه التقابلات لا توجد مسبقا في الفضاء الفيزيائي بل هي مؤسسة في النظام اللغوي ذاته.

ينبغي التمييز هنا، كما فعل يلمسليف، بين الجوهر الذي هو المتصل المتصل (continuum) اللامتمايز وبين الشكل الذي هو التمفصل اللساني لهذا المتصل. اللغة تسقط إذن شبكتها العلائقية على الجوهر اللابنيوي للمعنى وتستخرج منه أشكالا[9]. والفضاء الفيزيائي يمثل هذا الجوهر اللابنيوي الذي تقطِّعه كل لغة على نحو مختلف. قام إميل بنفنيست، من جهته، بإظهار الكيفية التي تبني بها المقولات اللسانية التجربة حين أكد عدم وجود إنسان متعالٍ منعزل عن غيره[10] لوجوده في فضاء متمفصل بفضل اللغة.

3.2 الفضاء بوصفه معطى سيميائيا

تعاملت السيميائية السردية والخطابية مع الفضاء باعتباره عاملا فاعلا كامل الأهلية. ففي الرسم العاملي الغريماسي يمكن للفضاء أن يشتغل بوصفه مساعدا أو معارضا، ميسّرا

للبرنامج السردي أو معرقلا له. لكن الأمر الأكثر جوهرية هو أن غريماس أظهر أن التفضيء هو من الإجراءات التي ينتج بها المتلفظ اللاأنا واللاهنا واللاالآن خارج ذاته. كما أن "التفضيء يبرز ضمن المسار التوليدي الشامل بوصفه مكونا من مكونات التخطيب discursivisation، أي ذلك الإجراء الذي تنقل بموجبه البنى السيميائية العميقة إلى مستوى الخطاب المتحقق فعلا[11]." هذا الإسقاط يخلق فضاء الحكاية بشكل حرفي. فبدونه لا يمكن لأي سرد أن يوجد. فالهناك السردي لا يسبق الحكاية بل يؤسسه فعل الحكي ذاته. اقترح جاك فونتاني وكلود زيلبربرغ سيميائية توترية يتشكل وفقها الفضاء بتدرجات الكثافة والامتداد[12].

4.2 السيميوسفير والفضاء الثقافي بوصفه نصا

اقترح يوري لوتمان مؤسس مدرسة تارتو–موسكو السيميائية مفهوم السيميوسفير الذي هو في أساسه فضاء سيميائي ضروري لوجود اللغات واشتغالها، إذ لا وجود للتواصل ولا للغة خارج هذا المحيط السيميائي[13]. يؤسس هذا المفهوم لبنية فضائية تتضمن مركزا وأطرافا وحدودا ومناطق ترجمة. رأى لوتمان أن البنية الفضائية للنص نموذج لبنية فضاء الكون، وأن التركيب الداخلي للنص يُسقَط على تركيب الأحداث الحقيقية[14]. بعبارة أخرى فإن البنيات المكانية للنصوص، كثنائيات الأعلى والأسفل والداخل والخارج والمركز والهوامش، تُنظم فهمنا للفضاء الواقعي ولا تكتفي بعكسه.

حلل بوريس أوسبنسكي Boris Ouspenski من جهته الكيفية التي تتشارك بها أنظمة المنظور في الرسم والأدب وحتى التنظيم الاجتماعي بنيات فضائية عامة يظل وسيطها الوحيد هو اللغة. وأظهر كيف تخلق الاختيارات اللسانية (وجهة النظر السردية، نظام الأزمنة، الإشاريات) الفضاءَ النصي.

3. اللغة بوصفها نظاما للتفضيء

1.3 معمار الفضاء اللغوي

تُشكِّل ظروف المكان وحروف الجر النظام اللساني الأولي للتفضيء. هذه الأدوات اللغوية التي تبدو بسيطة للوهلة الأولى تكشف عند التحليل عن تعقيد دلالي استثنائي. فهي

لا تشير إلى علاقات هندسية موضوعية بل إلى بدائيات مفاهيمية نَمذَجَتها التجربة الجسدية والتفاعل مع المحيط[15].

لنتأمل مقولة الداخل المُعبّر عنها في العربية بحرف في وفي الفرنسية بحرف dans. إنهما يشيران ظاهريا إلى الاحتواء المكاني. لكن فانديلواز أظهر أن هذا الحرف لا يشفر الاحتواء الهندسي البسيط بل علاقة سيطرة أو الاحتواء الوظيفي. فنحن نقول في البيت حتى لو وقفنا تحت الرواق أي في الخارج تقنيا. ونقول في الحافلة حتى لو لم يكن للحافلة سقف مغلق وهي بذلك تفتقد الاحتواء الكامل. المعيار إذن ليس هندسيا بل براغماتيا. ومن ثم يجوز لنا أن نتساءل هل يمارس المحتوي سيطرة على المحتوى أم لا.

أما تحليل كلمة over الإنجليزية فيبين تعقيدا أكبر. لهذه المفردة البسيطة عشرات الاستعمالات المتباينة ظاهريا. ففي the plane flew over تعني فوق وفي the water boiled over تعني فاضٍ وفي she looked over the wall تعني من فوق وفي he turned the page over تعني قلب. يمكن صورنة هذه المحاور السيميمية في نموذج شكلاني للفضاء. قدّمت هذا ما قامت به أنيت هيرسكوفيتس Annette Herskovits عند تحليل ظروف المكان في اللغة الإنجليزية، فبيّنت أنها لا تشفّر العلاقات الفضائية فحسب بل تشفّر أيضاً ما سمته "أمثالات هندسية (idéalisations géométriques) "وهي تبسيطات تخطيطية لتشكيلات فضائية معقدة[16].

من المعروف أن اللغات تختلف اختلافا جذريا في أنظمتها الخاصة بالظروف وحروف الجر. فكلمة sur الفرنسية تطابق أحيانا الإنجليزية on وأحيانا over وأحيانا upon دون أن يكون هناك تطابق منهجي. وبعض اللغات كالفنلندية تمتلك نظاما إعرابيا متطورا يميز خمس عشرة علاقة فضائية مختلفة في حين لا تميز الفرنسية سوى ثلاث أو أربع. كما تشفر الهنغارية لسانيا التمييز بين حركة نحو فضاء مغلق وحركة نحو سطح شيء، وهو تمييز غير موجود في لغات كثيرة. درس ستيفن ليفينسون اللغات التي لا تستعمل أي نظام يقوم على ظروف المكان النسبية بل أنظمة مختلفة تماما. فلغة التزيلتال tzeltal، وهي لغة من لغات المايا في المكسيك، تستعمل حصريا إحداثيات مطلقة تعادل نظام الشمال والجنوب

والشرق والغرب حتى لعلاقات القرب المباشر. فلا يقول المتكلم الكتاب على يسارك بل الكتاب جنوبك. وهذا الاختلاف اللساني يترابط مع اختلافات إدراكية قابلة للقياس، إذ إن متكلمي التزيلتال يحافظون باستمرار على توجه أصلي ذهني، لامتلاكهم كفاءة غير موجودة عند متكلمي لغات كثيرة أخرى[17].

2.3 الإشاريات وترسيخ المعنى في الفضاء التلفظي

تشكل الإشاريات المكانية – مثل "هنا" و"هناك" و"هذا" و"ذاك" و"تعال" و"اذهب" – آلية أساسية أخرى للتفضيء اللساني. وخلافا لظروف المكان التي تؤسس علاقات بين أشياء فإن الإشاريات ترسخ الفضاء في وضعية التلفظ ذاتها. لعل أهم دليل على هذا إحالة مفردة "أين" التي تشير إلى المكان المعين وإلى غير المعين في حالة الاستفهام[18].

لنشر هما إلى مفهوم الأصل (Origo) الذي يشير إلى النقطة الصفر للنظام الإشاري الذي يشكله المتكلم في الهنا–الآن الخاص به. فالكلمات الإشارية تستقبل دلالتها الملموسة من وضعية التلفظ، لأنها تشير انطلاقا من الأصل نحو مناطق الفضاء الوضعي[19]. وبغياب نقطة الترسيخ التلفظي هذه يغدو هنا وهناك بلا دلالة وبلا إحالة إلى فضاء بعينه.

الإشاريات تشكل إذن الذاتية في اللغة وفق جهاز شكلي تحدده الملفوظات المترسخة في سياق تداولي فعلي. وهذا ما يؤكد مسلمة بنفنيست القائلة: "في اللسان وبواسطته فقط يتشكل الإنسان باعتباره فاعلا"[20]. يمر هذا التشكل بالضرورة عبر التفضيء، فالأنا تتأسس مبدئياً "هنا"، والأنت تُبنى "هناك" الموجود في موضع قريب، والهو يتحقق "هنالك"، أي في موضع بعيد. هذا التوزيع ليس نهائياً بل تداولي يتعيّن بالوضعيات الآنية للكلام.

ينبغي أن نميز، كما فعل فيلمور، بين أنواع عدة من الإشارية المكانية. فهناك "الإشارية الإيمائية" deixis gestuelle التي ترافق حركة فيزيائية ("*هذا* الكتاب الذي أمسكه") و"الإشارية الرمزية" التي تؤسس فضاءً نصياً ("فيما سبق"، "في الفصل التالي") و"الإشارية الإحالية" التي تخلق استمرارية مرجعية في الخطاب[21]. يبني كل نوع من هذه الأنواع ضربا محددا من الفضاء.

تتنوع الأنظمة الإشارية بين اللغات تنوعاً لافتاً. ففي الفرنسية لا نميز إلا بين درجتين في المسافة يُعبَّر عنهما بـ"ceci/cela"، في حين تميز بعض اللغات ثلاث درجات (قريب/متوسط/بعيد) أو حتى أربعاً. اليابانية تمتلك نظاماً بثلاثة مصطلحات / これ Kore) (あれ Are / それ Sore تُشفّر ليس فقط المسافة بل أيضاً المعرفة المشتركة بين المتحاورين: فـ"Kore" هي في دائرة المتكلم (أنا)، و"Sore" في دائرة المستمع وتشير لشيء قريب من المحاور لكن بعيد عن المتكلم، أما "Are" فهي خارج دائرتي المتكلم والمستمع معاً. هذه الفروق غير موجودة في أغلب اللغات الطبيعية.

بالإضافة إلى هذا التنوع المرجعي بين اللغات، تمتد الإشاريات المكانية استعارياً لمجالات أخرى، إذ إن "هنا" و"هناك"، مثل "ثمة" تماما، تنطبقان في بعض اللغات على الزمن ("من هنا" = من الآن)، وعلى الخطاب ("هنا يجب أن نميز")، وعلى المجالات المجردة ("هناك تكمن المشكلة"). هذه الامتدادات ليست اعتباطية بل تتبع أنماطاً استعارية منتظمة.

في اللغة العربية نظام إشاري بالغ الثراء يستحق دراسة مستقلة ومعمقة من حيث تعدد صيغه وارتباطه بالمسافة والنوع والعدد والحضور والغياب. إن تناول هذا الأمر من منظور لساني أو سيميائي سيفتح أفقاً بحثياً واعداً، لأن تحليل أسماء الإشارة العربية ظل لزمن طويل محصوراً في المقاربة النحوية التقليدية التي تعرّفها بوصفها "ما دل على مسمى وإشارة إليه"[22] أو ما دل على حاضر أو ما أنزل منزلته[23]. وقد حاول بعض الباحثين تبيان علاقة الشبه بينها وبين الحرف من حيث التمكن الشكلي اقتداءً ببعض النحاة القدماء[24]، فاختلِف إن كانت أَعرفُ من الأعلام أو أن الأعلام أعرف منها[25]، وبُحث في علاقتها بالصرف والإعراب[26] وتعلقها بالحروف[27] وتباينت الآراء حول تشابهها مع الأسماء الموصولة[28]. هذه القضايا مهمة للغاية، غير أنها لا تعالج كيفية إنشاء إشاريات التلفظ وتقطيع الفضاء ولا تستقصي إسقاطاتها التداولية في السياقات الفعلية.

3.3 أفعال الحركة والتشكل الفضائي

تشكل أفعال الحركة ركيزة ثالثة للتفضيء اللساني. وهي لا تصف ببساطة تنقلات الفواعل في فضاء موجود سلفا بل تخلق المسارات والمرجعيات والغايات التي يتبنين بها الفضاء.

لِنُشر في هذا السياق إلى ليونارد تالمي Leonard Talmy الذي ميَّز، في أعماله الرائدة حول "علم الدلالة المعرفي"، بين نوعين كبيرين من اللغات حسب الطريقة التي تشفر بها الحركة. النوع الأول خاص بـ"اللغات بإطار "قمري" (كالإنجليزية، والألمانية، والروسية) تشفِّر المسار في توابع الفعل (جزيئات، بادئات) كما هو الأمر في "run out" (ينفُد/ينتهي)، "laufen hinaus (يركض أويمشي إلى الخارج/ يؤول إلى)". النوع الثاني خاص بـ"اللغات بإطار فعلي" (كالفرنسية، والإسبانية، واليابانية) تشفر المسار في الفعل نفسه مثل " sortir en courant" و "salir corriendo" ("خرج راكضاً)[29]. ولو حاولنا المقارنة بين هذه التعبيرات لحصلنا على ما يلي. في الإنجليزية يقال run out بدمج الحركة والاتجاه في فعل وظرف. وفي الألمانية يقال hinauslaufen بدمجهما في سابقة اتجاه وفعل ضمن كلمة واحدة. وفي الفرنسية يقال sortir en courant وفي الإسبانية salir corriendo بالفصل بين فعل الخروج ووصف نمط الحركة. يمكن تلخيص هذا الأمر كما يلي:

التعبير	اللغة	البنية اللغوية
Run out	الإنجليزية	فعل + ظرف (دمج الحركة والاتجاه).
Hinauslaufen	الألمانية	سابقة اتجاه + فعل (دمج في كلمة واحدة).
Sortir en courant	الفرنسية	فعل خروج + وصف الحركة (انفصال).
Salir corriendo	الإسبانية	فعل خروج + وصف الحركة (انفصال).

هذه الاختلافات ليست سطحية، لأنها تؤثر تأثيرا عميقا في الطريقة التي يتصور بها المتكلمون الحركة ويصفونها. فمتكلمو اللغات ذات الإطار القمري يصفون عادة مسارات معقدة بمقاطع عدة كما في التعبير الإنجليزي he ran down into the valley and up the hill أي ركض هبوطا إلى الوادي وصعودا إلى التل، بينما يميل متكلمو اللغات ذات الإطار الفعلي إلى تقسيم هذه المسارات إلى أحداث منفصلة[30].

إضافة إلى ذلك، تخلق أفعال الحركة طوبولوجيا حدثية topologie événementielle، فدخل وخرج لا يصفان حركات فحسب بل يخلقان حدا يميز بين بين /الداخل/ و/الخارج/. وصعد ونزل يؤسسان عمودية مُقوَّمة verticalité axiologisée، حيث يملك /الأعلى/ قيمة [أكبر] أو [أحسن] بالمقارنة مع /الأسفل/ في كثير من الثقافات. أما فعل "عَبَرَ" فإنه يحول فضاء ثنائي الأبعاد إلى فضاء يملك سمكا يتجاوز ثنائية /عرْض/ تع /طُول/.

إذَن تجمع أفعال الحركة عدة مقاييس كالاتجاه، ونمط التنقل، والمنظور ("نابذ/جاذب" centrifuge/centripète)، والصيغة (غائي/لاغائي). فالتعبير "مشى نحو س" يختلف عن التعبير "مشى حتى س" ليس بالاتجاه بل بالصيغة، فالأول لاغائي atélique (دون حد محدد)، بينما الثاني غائي télique (موجه نحو غاية مُحققة)[31].

تتنوع نحونة grammaticalisation الحركة تنوعا استثنائيا من لغة لأخرى. فبعض اللغات الأمازونية تشفّر إلزاميا ما إذا كانت الحركة مرئية أم لا بالنسبة للمتكلم. وتشفّر لغات أخرى نوع التضاريس المعبورة. لغة النافاهو navajo – مَثلا – تفرق نحويا بين حركة شيء مدور وشيء طويل ومرن وشيء محتوى في إناء. هذه التمييزات ليست عرضية بل تخلق بعمق التصور الفضائي للمتكلمين.

4. الاستعارات الفضائية والتمثّل المعرفي

1.4 انتشار الاستعارات الفضائية في التفكير المجرد

للاستعارة طابع إنشائي، إذ ليست مجرد زخرفة جمالية. بل إن نظامنا المفاهيمي العادي الذي نفكر به ونتصرف وفقه هو في أساسه ذو طبيعة استعارية. ولعل الاستعارات الفضائية من أهم الاستعمالات المجازية الناقلة للمعنى من حرفيته المباشرة إلى بعده الإيحائي. لنأخذ مفهوم الزمن المجرد مثالا على هذا. فهو يُتصوَر فضائيا وفق استعارتين رئيسيتين. أولاهما استعارة الزمن المتحرك كما في قولنا "الموعد يقترب" و"الصيف أمامنا" و"الماضي خلفنا". والثانية استعارة الأنا المتحركة كما في قولنا "نحن نقترب من الموعد" و"ندخل الصيف"

و"نترك الماضي خلفنا". في الحالتين يتلقى الزمن بوصفه مفهوما مجردا بنية فضائية تحدد دلالته وترسخه التداولي.

الحالات العاطفية تُتصوَّر هي أيضا فضائيا. فقولنا "أنا أحلق" أو "أنا في الذروة"[32] إحالة إلى حالة غبطة euphorie في النظام الخلاقي أو النظام التيمي thymique. نجد المعادل لهذا في الفرنسية في تعبيرات كثيرة من قبيل "je suis au septième ciel", أو "remonter le moral" (المترجمة حرفيا "أنا في السماء السابعة"، "رفع المعنويات"). بالمقابل فإن تعبيرات من قبيل "أنا في الأسفل: أو "في القاع" تحيل إلى حالة فجائعية كأن نقول "السقوط في الكآبة" أو "بلوغ القاع". أما الكينونة في الخارج فقد تشير إلى الاغتراب أو الإقصاء بينما تحيل الكينونة في الداخل إلى الانتماء والانضواء.

العلاقات الاجتماعية تستثمِر إذن باستمرار الفضاء في تجلياته المختلفة. فالتراتبية عمودية كما في تعبير "الارتقاء الاجتماعي" أو نعت شخص ما بـ"المتسلق"، أو "إنه على قمة الهرم" أو "على رأس الشركة"، أو "أن له مكانة راقية ". أما الحميمية فيعبر عنها بالقرب المكاني كقولنا "إنه قريب مني" أو "حصل تقارب بين شخصين". والسلطة والقوة يعبر عنهما بالعلو والمركزية كقولنا "إنه في قلب السلطة"، الذي يقابل "إنه مهمش".

هذه الاستعارات ليست مجرد أشكال تعبيرية. إنها أطر تبني إدراكنا وأفعالنا وتحدد تموضع الفواعل رمزيا. فنحن نفكر حرفيا في الزمن والعواطف والعلاقات الاجتماعية والقيم الأخلاقية بدلالات فضائية، وتغيير الاستعارات هو تغيير لفهمنا لهذه المجالات المجردة.

2.4 نظرية التكامل المفاهيمي والفضاءات الذهنية

يشتغل الإدراك البشري وفق نظرية التكامل المفاهيمي (conceptual blending) انطلاقا من خلق فضاءات ذهنية يقيم من خلالها مجموعات من السيناريوهات والوضعيات والمفاهيم ويدمجها في فضاءات متكاملة (blended spaces) تمتلك بنية ناشئة[33]. الاستعارات الفضائية تنتج من مثل هذه التكاملات، فحين نقول السنة أمامنا ندمج الفضاء الذهني للزمن التقويمي مع الفضاء الذهني للحركة الاتجاهية في الفضاء الفيزيائي. ويرث الفضاء المتكامل جزئيا من كل فضاء أولي أي من تسلسل الزمن ومن اتجاهية الفضاء الفيزيائي.

من جهة أخرى، ليست الفضاءات الذهنية مجرد تمثيلات سلبية، بل بناءات فاعلة تصاغ أثناء الخطاب. فحين يقول أحدهم "في عوالم الفيلم"، أو "حسب زيد"، أو "في العصور الوسطى"، فإنه يفتح فضاء ذهنيا جديدا بإحداثيات مكانية–زمانية خاصة به. والخطاب يشتغل باستمرار بين هذه الفضاءات خالقا طوبولوجيا إدراكية معقدة.

يكشف تحليل الفضاءات القاعدية وفضاءات التبئير عن الكيفية التي يفضئ بها الإدراك المجرد بشكل ممنهج. فالشرطيات تخلق فضاءات افتراضية كقولنا "لو كنت غنيا"، والجهات تخلق فضاءات ممكنة كقولنا "قد يكون مريضا"، والزمنيات تخلق فضاءات ماضية أو مستقبلية. كل واحد من هذه الفضاءات يمتلك بنية شبه–فضائية مكانية. فنحن "ندخل مناقصة"، و"نستكشف إمكانيات"، و"نعود إلى الحاضر".

3.4 الرسوخ الجسدي للاستعارات الفضائية

الإدراك البشري راسخ أساسا في التجربة الجسدية، والمخططات–الصور schémas-images المنبثقة من تفاعلنا الفيزيائي مع المحيط تهيكل تفكيرنا المجرد[34]. فمخطط المحتوي مشتق من تجربتنا الجسدية الأساسية. جسدنا هو إذن الإطار الذي نفهم من خلاله فعل الدخول والخروج من الغرفة مثلا. وهذا المخطط يبني أيضا مجالات مجردة، فـ"نكون في وضعية" و"نخرج من حالة حزن أو فرح".

ينبثق مخطط المصدر–المسار–الغاية من تجربتنا للحركة الموجهة، إذ ننطلق من نقطة ما ونتبع مسارا ما ونصل إلى نقطة أخرى. ينطبق هذا المخطط على العمليات المجردة أيضا، فالمحاجة تنطلق من مقدمات وتتبع استدلالا وتصل إلى خلاصة، والمشروع ينطلق ثم يتقدم بإيقاع ما ثم يثمر بنتائج.

أما مخطط الأعلى–الأسفل فمشتق من وضعيتنا العمودية ومن تجربة الجاذبية، ذلك أن الصيغة "في الأعلى" تُعبِّر عن الهيمنة، وعن الوعي، وعن الإيجابية فالوقوف، أما التعبير عن الاستلقاء ففيه إشارة إلى كونِنا غير قادرين على رد الأذى (الضعف) أو كونِنا نائمين (اللاوعي) أو مرضى (الضعف). من هنا يحيل تعبير "في الأسفل "مبدئياً إلى نقص في

السيطرة وسلبية ولاوعي. هذه الارتباطات الجسدية تبني أخلاقنا، فالفضيلة /مرتفعة/ (التعالي، والارتقاء الروحي)، والرذيلة /واطئة/ (السقوط الأخلاقي، الانحدار نحو الرذيلة).

من جهة أخرى، هناك تجارب كثيرة تُظهر أن تنشيط الاستعارات الفضائية ينشط فعلياً مناطق الدماغ المرتبطة بالحركة والإدراك الفضائي، فالفهم المعبر عنه بالعبارة " saisir une idée" (إدراك فكرة) ينشط جزئياً نفس المناطق التي تُفعَّل حينما نمسك فيزيائياً بشيء ما[35].

4.4 التنوعات الثقافية في الاستعارات المكانية

إن كانت الاستعارات الفضائية تنبثق من التجربة الجسدية الكونية فإنها مع ذلك تتنوع تنوعا كبيرا بين الثقافات واللغات. الزمن يقدم مثالا واضحا لهذا التنوع. فاللغات الهندو-أوروبية تتصور المستقبل أماما والماضي خلفا. لكن لغة الأيمارا aymara في أمريكا اللاتينية فتعكس هذه الاستعارة. الماضي عندها أمام لأنه مرئي ومعروف والمستقبل خلف لأنه غير مرئي ومجهول. وهذا الاختلاف ليس اعتباطيا بل يعكس إبستيمولوجيا مختلفة للزمن[36].

تختلف اللغات أيضا في تصورها العمودي للزمن. ففي الماندارين وهي اللغة الأكثر انتشارا في الصين يمكن التعبير عن الزمن عموديا. فالشهر من الأعلى هو الشهر الماضي والشهر من الأسفل هو الشهر القادم. ويمكنها التعبير عن الأمر نفسه أفقيا أيضا. وهذا لا يؤثر على طرائق التعبير فحسب بل يبني التمثلات الذهنية المسؤولة عن هيكلة الأنظمة المفاهيمية للفكر.

الاستعارات الأخلاقية تتنوع هي أيضا خلافا للاعتقاد السائد النابع من دغمائية لا تتصور، في الغالب، وجودَ أنظمة قيمية غير أنظمتها. فإذا كانت ثقافات كثيرة تشارك في ربط "الأعلى" بالخير و"الأسفل" بالشر، فثمة استثناءات تنزاح عن هذه القاعدة. فالثقافات التوحيدية (اليهودية، المسيحية، الإسلام) تشتغل وفق تشاكل isotopie مشترك أو تداُل isosémie موحَّد، يكون فيه السيم sème /علوي/ مشيرا إلى [سماء]، ثم إلى ما هو /خيِّر/، ويكون فيه سيم /سفلي/ مشيرا إلى /الأرضي/ أو إلى [جحيم]، ثم إلى ما هو /شر/. لكن في بعض ثقافات جنوب شرق آسيا فيتشارك [المقدس] مع [الدنيوي]، لا بإحالة إلى عالم آخر بل بممارسة وضع المذابح في الأعلى.

إذن إنه لمن الخطأ أو الساذجة أن نسقط الاستعارات الفضائية للغة ما على اللغات الأخرى، فحتى المفاهيم التي تبدو من الكليات universaux كمقولتي [الداخل] و[الخارج] فلها امتدادات استعارية مختلفة جداً حسب الثقافات.

5. التنوعات اللسانية والثقافية للتفضيء

1.5 الأطر المرجعية للفضاء بين النسبي والمطلق والجوهري

حدد ليفينسون ثلاثة أنواع من الأطر المرجعية للتوجه الفضائي تفضلها اللغات بدرجات غير متساوية. الإطار النسبي يستعمل منظور المتكلم كقولنا "على يساري" أو "أمامي". والإطار المطلق يستعمل إحداثيات ثابتة كقولنا "في الشمال" أو "في المنبع". والإطار الجوهري يستعمل خصائص شيء في الإحالة كقولنا "أمام السيارة" أو "قدم الجبل"[37].

تفضل معظم اللغات الأوروبية الإطار النسبي. فهي تقول "الكتاب يسار الكأس" مستعملة منظور المتلفِّظ، وليس تعالق الأشياء، لأنه لو غيَّر المتلفظ وضعه لتغير في حالات موقع الشيئين يسارا ويمينا. لكن بعض اللغات، كالتزيلتال tzeltal أو الغوغو يميثير guugu yimithirr في أستراليا، فتستعمل حصرياً أو بشكل مطرد الإطار المطلق، فالمتكلم سيقول في هذه الحالة "الكتاب شمال الكأس" حتى على طاولة أمامه بحسب التموقع العام المحدد بالاتجاهات الرئيسة للكون.

هذه الاختلافات ليست سطحية ولا عرضية بل تترابط مع اختلافات إدراكية فعلية. فمتكلمو اللغات التي تشتغل وفق الإطار المطلق يحافظون باستمرار على توجه أصلي حتى في الداخل وحتى في الظلام. وحين يدورون حول أنفسهم عدة مرات وعيونهم معصوبة يبقى بإمكانهم الإشارة بدقة إلى الشمال. هذه القدرة المذهلة بالنسبة لغيرهم عادية عندهم وضرورية للتكلم بلغتهم.

أما الإطار الجوهري فيقدم بذاته تنوعات كثيرة، فتعبير "أمام الشاحنة" يمكن أن يعني إما جهة الزجاج الأمامي باستعمال الخصائص الجوهرية للعربة أو الجهة المواجهة للمتكلم

باستعمال المنظور النسبي. بعض اللغات لا تسمح إلا بالقراءة الجوهرية وأخرى بالقراءة النسبية فحسب. وفي لغة الهوسا يميز نحويا بين هاتين القراءتين.

تكشف هذه التنوعات أن التفضيء اللساني ليس كونيا بل متغير من المتغيرات الثقافية واللسانية. وطريقتنا الطبيعية في تقطيع الفضاء وتنظيمه تعكس ببساطة عادات لغتنا الأم لا بنية إدراكية فطرية وكونية.

2.5 الطوبولوجيا والهندسة بين الكيف والكم

تختلف اللغات أيضا في الدرجة التي تشفَّر بها المعلومات القياسية والمعلومات الطوبولوجية الخاصة بالفضاء. الملاحظ أن اللغات الأوروبية الحديثة تميل إلى التفضيء الهندسي الدقيق كالاصطلاحات المبنية على مسافات محدَّدة من قبيل "على بعد ثلاث كيلومترات" أو الاصطلاحات المشيرة إلى الأشكال الهندسية كمربع وكروي. بالمقابل، تفضل لغات كثيرة التفضيء الطوبولوجي الخالص، أو الكيفي qualitatif. فهي تُشفِّر علاقات كاتصال/انفصال، واحتواء/إقصاء، وقرب/بعد دون تحديد قياسي، لدرجة تبدو فيها غير مشتملة على مفردات خاصة بقياس المسافة، والزوايا، والسطح[38].

هذا الاختلاف يعكس إبستيمولوجيات مختلفة. فهندسة الفضاء التي نعتبرها بديهية أُنتجت في تاريخ فكري محدد هو تاريخ الهندسة اليونانية والمنظور النهضوي والخرائطية الحديثة. في حين طورت ثقافات أخرى معارف فضائية بعيدا عن الهندسة. تقدم أنظمة الملاحة البولينيزية مثالا يستدعي التنويه، فقد عَبَر بحارة بولينيزيا في السابق آلاف الكيلومترات من المحيط بدون خرائط ولا أدوات بالتوجه، باستعمال النجوم والأمواج والطيور. كانت معرفتهم الفضائية ضخمة لكنها غير هندسية. اعتمدوا على نظام إحالات متحركة وعلائقية يختلف جذريا عن الخرائطية cartographie الغربية[39].

مع هذا فحتى في الحضارات التي تهيمن فيها التمثلات الهندسية يبقى التفضيء اليومي طوبولوجيا إلى حد كبير. فحين نرشد شخصا ما إلى الطريق نقول له "استدر يسارا عند الإشارة ثم امش يمينا". هذه المعالم كيفية لا علاقة لها بالإحداثيات الهندسية. كما أن الخرائط الذهنية التي نبنيها للمدن صحيحة طوبولوجيا لكنها مشوهة هندسيا، لأنها تمثيلية

وتقريبية. الأمر أوضح في خريطة العالم التي تتحدد فيها الأحجام عند بعض الجغرافيين إيديولوجيا، فتبدو بعض القارات والدول أصغر من غيرها مع أن الواقع الفعلي يخالف هذا التمثيل الهندسي.

3.5 الطوبونيميا ودلالة الإقليم

تكشف الطوبونيميا، وهي دراسة أسماء الأماكن، كيف تحوّل التسمية الفضاء إلى إقليم دال ومؤدلج. فالأباتشي الغربيون في أريزونا يسمون أماكن إقليمهم وفق أوصاف مفصلة كاستعمالهم لطوبونيم من قبيل "الماء يتدفق نحو الأسفل على تعاقب صخور مسطحة وبيضاء" أو "خط صخور بيضاء يمتد نحو الخارج والأعلى"[40]. هذه الأسماء الطويلة التي تتكون غالبا من عشر إلى خمس عشرة كلمة ليست مجرد أوصاف بل هي تشفير يحيل إلى طريقة محددة لإدراك المكان والتعامل معه. إضافة إلى ذلك فإن كل مكان يحمل قصصا وحكايات أخلاقية لأحداث وقعت فيه، ليصبح الفضاء عندئذ مشبعا بالدلالة.

الملاحظ عند دراسة اللغات هو أن ممارسات التسمية تتنوع تنوعا استثنائيا. فللإنويت Inuit في غرينلاند مئات المصطلحات لأنواع مختلفة من الجليد والثلج وحالات البحر، نتجت عنها تمييزات حيوية للملاحة والصيد وفضاءات دقيقة غير مرئية لغير الإنويت.

دَرَج الاستعمار غالبا على إعادة تسمية ممنهجة للإقليم باستبدال الأسماء الأصلية بأسماء لها دلالة في ثقافته هو. لم يغير هذا الأمر الخرائط فحسب بل حوّل ولو آنيا الفضاء نفسه بإدخاله في شبكة لسانية مخالفة للثقافة الأصلية. استهدف هذا العنف الطوبونيمي محوَ الدلالات السابقة المتعلقة بالأماكن وفرَض واقع حضاري جديد. بيَّن بول كارتر كيف أن تسمية الأماكن في أستراليا من قبل المستكشفين البريطانيين خلقت حرفيا فضاء إمبرياليا محولة أرضا مسكونة منذ أربعين ألف سنة إلى أرض غير مأهولة *terra nullius* جاهزة للتملك. فعل التسمية شارك في الغزو الكولونيالي ذاته[41].

6. التفضيء النصي للمعنى

1.6 الصفحة بوصفها فضاء

تحوّل الكتابة اللغة الزمانية السمعية الخاصة بالكلام إلى لغة فضائية بصرية خاصة بالنص. هذا التحويل ليس محايدا بل يخلق إمكانات دلالية لا وجود لها في المشفاهة. من هنا تحدّث رولان بارث عن الفضاء الجدولي للنص القابل للإدراك في كل أجزائه آنيا مقابلَ الخطية الخالصة للكلام[42]، مذكرا بصفة الدال الخطية التي تحدّث سوسور.

تنضيد النص نفسه وإخراجه بشكل معين هو أيضا دال. فالفراغات والفقرات والعناوين تخلق طوبوغرافيا بصرية للمعنى. كما أن عتبات النص أيضا، كالملاحظات والمقدمات، تنظم النص الرئيسي فضائيا وتوجه قراءته[43]. والنص نفسه يختلف معناه ويتغير بحسب التنضيد المعتمد.

الشعر يستغل هذه الفضائية أكثر من غيره. فالأبيات تخلق وحدات بصرية مميزة عن الوحدات النحوية. والفراغ بعد البيت يخلق انقطاعا فضائيا ومتنفسا معنويا. بل إن الترتيب المكاني للكلمات على الصفحة دالٌ كما هو الأمر في كاليغرامات أبولينير Apollinaire التي ترسم بشكلها الفضائي ما تصفه لفظيا. دفع ستيفان مالارميه هذا التفضيء إلى حده الأقصى. فالكلمات تتناثر على الصفحة وفق أحجام حروف مختلفة خالقة ما سماه تقسيمات منشورية للفكرة[44]. المعنى لم يعد خطيا بل فضائيا وشبكيا ويتطلب قراءة جدولية بقدر ما هي تسلسلية. أظهر إيمانويل سوشييه، من جهته، كيف يشارك التشكيل الطباعي والغرافيكي للنص مشاركةً كاملةً في دلالته، فاختيار الخط والتباعد ليسا محايدين أبدا بل ينتجان نصا معماريا يوجه التلقي[45].

2.6 التفضيء الرقمي واستراتيجيات البحث الافتراضي

يعيد النص المتشعب hypertexte[46] الرقمي طرح مسألة التفضيء النصي بقوة، لأنه لا يمكن تمثيله على الورق. يخلق هذا الأمر فضاءً نصيا قابلا للاستقصاء وفق مسارات متعددة. إنه يحقق بعض حدوس النظرية الأدبية لما بعد البنيوية. ففكرة دريدا للنص بوصفه شبكة لانهائية من الإحالات والتناص البارثي وجذمور rhizome دولوز كلها استعارات للاخطية قابلة للتحقق حرفيا في النص المتشعب.

إن البحث في النصوص المتشعبة، المعبر عنه حرفيا في بعض اللغات الأوروبية بمفردة الملاحة navigation، يحشد باستمرار استعارات فضائية. فنحن "نبحر في موقع ويب" و"ندخل صفحة" و"نعود إلى الخلف" و"نضيع في الروابط". للنصوص الرقمية معمار ينظم المحتويات وفق مبادئ مكانية هي التراتبية والمركزية والقرب. لذا يبني مستعملو الأنترنت خرائط ذهنية لمواقع الويب للتسهيل تصفحها، ويضع مصممو العالم الافتراضي هيكلاً وفق إرغونوميا ergonomie خاصة تحدد التفاعل بين الإنسان وعناصر النظام. فالموقع المنضد بشكل سيئ مَثَلا يُحدِث ضياعاً وإحباطاً لدى المستعمل. الحل هو تشييد الموقع باتساق. في هذا الأمر هو تفضيء، لأننا نتكلم عن معمارية المعلومات والإبحار ومعالم البحث[47].

لا يقتصر التفضيء الرقمي على النص المتشعب وحده. فالواجهات الغرافيكية تستعمل منهجيا استعارات فضائية كالمكتب بمجلداته ونوافذه والسلة والأيقونات. هذه الاستعارات تجعل التجريد الحاسوبي قابلا للتوظيف العام بترجمته إلى دلالات فضائية مألوفة.

3.6 الفضاء السردي والتبئير

حللت السرديات منذ جيرار جينيت كيف تبني الحكايات فضاءاتها التخييلية. فمفهوم التبئير يتضمن أساسا استثمارا دلاليا لمقولة الفضاء، إذ يحدد المنظور السردي الذي تتجلى وفقه الأحداث. ميز جينيت التبئير الصفري – وهو الخاص بالراوي العليم غير المتموضع مكانيا – عن التبئير الداخلي – وهو منظور شخصية متموقعة في الفضاء الحكائي – وعن التبئير الخارجي – وهو نظرة خارجية تراقب الفضاء دون النفاذ إليه[48].

يمكن أن نميز أيضا وفق تصور ميكا بال بين فضاء الخرافة – وهو فضاء الأحداث المحكية – وفضاء الحكاية –وهو الفضاء كما هو منظم نصيا ومقدم –، وفي هذا استرجاع لثنائية بنفنيست الحكاية/القصة. يُجري السرد إذن انتقاءً وتبئيراً وتعاقباً يحوِّل الفضاء الخام للقصة إلى فضاء دال للحكاية[49]. يمكن أن نتحدث إذن عن السرد بوصفه واقعا افتراضيا نرى من خلاله كيف تؤسِّس الحكايات عوالم سردية يتموضع فيها القراء تخيليا، ويتخذ هذا

التموضع شكل سكن يحشد فيه القارئ قدراته المعرفية لإدراك الفضاء، فيبني خريطة ذهنية للفضاء الخيالي ويتابع تنقلات الشخصيات ويتصور التشكلات الفضائية.

يضاف إلى هذا كله أن الأوصاف الخاصة بالأماكن في الروايات ليست محايدة إطلاقا لأنها تكشف دائما وجهة نظر خاصة ونظاما قيميا وطريقة معينة لتقطيع الفضاء والحكم عليه. لذا فمن الأهمية بمكان ملاحظة التنوع التاريخي والتكويني في الوصف الأدبي للفضاء الذي يحشد معجما خاصا تطور عبر الزمن كما وضح ذلك فيليب هامون[50].

4.6 الكرونوتوبات الأدبية وتعالق الفضاء والزمن في الرواية

ميخائيل باختين هو من قدم مفهوم الكرونوتوب لتحليل تشكلات الفضاء–الزمن المحددة للأنواع الأدبية. أشار بهذا المصطلح إلى الترابط الأساسي للعلاقات المكانية–الزمانية كما استوعبها الأدب[51]، فحدد عدة كرونوتوبات كبرى، منها كرونوتوب الطريق وهو الفضاء الخطي للبحث حيث يلتقي البطل أشخاصا ومغامرات متنوعة كما في رواية البيكاريسك ورواية الفروسية. ومنها كرونوتوب العتبة وهو الفضاء–الزمن الخاص بالأزمة والقرار والمنعطف الوجودي كما عند دوستويفسكي. ومنها أيضا كرونوتوب القلعة وهو الفضاء–الزمن الخاص بالأثر التاريخي حيث الماضي يضغط على الحاضر كما في الرواية الغوطية.

هذه الكرونوتوبات لا تصف أطر مكانية–زمانية بل أشكالا للتجربة الإنسانية. فالطريق فضاء تحول والعتبة فضاء اختيار والقلعة فضاء ذاكرة. كل هذه التمظهرات تجسد نمطا وجوديا خاصا. ليس الكرونوتوب إذن ثيمة ولا موتيفا بل مصفوفة منظمة أساسية لتحديد الجنس الأدبي وهو ما يجعل أنواعا معينة من الأحداث ممكنة وأخرى مستحيلة بحسب البعد النوعي للنصوص.

أثبت مفهوم الكرونوتوب خصوبة استثنائية في التحليل الأدبي إذ سمح بفهم الكيفية التي تخلُق بها الأشكال السردية طرقا محددة لاختبار الفضاء والزمن. فالرواية الواقعية في القرن التاسع عشر مثلا خلقت كرونوتوبا يجمع بين زمن سيري وفضاء اجتماعي مختلف جذريا عن كرونوتوب الرواية في العصر الوسيط.

7. فينومينولوجيا الفضاء المعيش

1.7 الفضاء الوجودي الهيدغري

اقترح مارتن هيدغر تحليلا وجوديا للفضاء يقطع مع التصورات التقليدية. فالفضائية الأولية spatialité primordiale عنده ليست الفضاء الهندسي المتجانس بل فضاء الكينونة–في–العالم (In-der-Welt-sein) المهيكل بانشغالات الدازاين ومشاريعه.

قدم هيدغر مفهومي في–متناول–اليد (Zuhandenheit) وتحت–اليد(Vorhandenheit)، ذلك أن الأداة في–متناول–اليد لا تدرك أولا بوصفها شيئا في الفضاء الموضوعي بل بوصفها عنصرا في شبكة إحالات عملية. فالمطرقة تحيل إلى المسمار والمسمار يحيل إلى الخشبة والخشبة تحيل إلى مشروع بناء. هذا الفضاء البراغماتي هو الأولي والفضاء الهندسي يشتق منه بالتجريد[52]. من جهة أخرى، الفضائية الوجودية تتصف بسمتين هما الإبعاد (Ent-fernung) والاتجاه (Ausrichtung). الإبعاد لا يشير إلى المسافة المترية بل إلى القابلية للوصول البراغماتية. فما هو بعيد هندسيا يمكن أن يكون قريبا وجوديا كصديق في الطرف الآخر من العالم نتصل به بالهاتف. والعكس صحيح. أما الاتجاه فينظم الفضاء وفق مشاريع الدازاين لا وفق إحداثيات موضوعية.

التأكيد الهيدغري أن اللغة بيت الكينونة تأكيد حاسم، ذلك أن الفضاء الوجودي يتمفصل بالضرورة في اللغة، فحروف الجر وظروف المكان وأفعال الحركة لا تصف فضاء موجودا مسبقا بل تمفصله وتجعله قابلا لأن يفهم. وبدون لغة لا يكون الفضاء قابلا للسكن إنسانيا.

2.7 الفضاء والجسد الفينومينالي

رسخ موريس ميرلو–بونتي الفضائية في التجربة الجسدية. اقترح مفهوما لها باعتبارها بعدا تكوينيا للجسد الخاص مخالفا بذلك النزعة الفكرانية l'intellectualisme التي تختزل الفضاء في التمثل ذهني والنزعة التجريبية التي تختزله في كونه مثيرا حسيا. تحدث ميرلو–بونتي عن "المخطط الجسدي" الذي هو "طريقة للتعبير عن أن جسدي في العالم[53]". هذا المخطط يبني الفضاء قبل أي تأمل فكري. فثنائية الأعلى والأسفل محددة بالنسبة لوضعيتنا

وثنائية اليسار واليمين محددة بالنسبة ليدينا وثنائية الأمام والخلف محددة بالنسبة لنظرنا. إذن ليس الفضاء الإطارَ الذي يتموضع فيه الجسد بل هو امتداد جوهري له. والإدراك الفضائي ليس استقبالا سلبيا للحيز بل هو استكشاف فاعل، فرؤية مكعب معناها توقع وجوهه غير المرئية ومعرفة ضمنية لإمكانية إدراك جوانبه الأخرى بالتنقل حوله أو بنقله من وضعية إلى أخرى. تبني هذه القصدية الحركية الفضاء المدرك بوصفه حقلا للحركات الممكنة.

تتجذر اللغة في هذه الفضائية الجسدية. فالاستعارات الفضائية ليست اعتباطية بل مُحفزَة بالتجربة الجسدية. فعل comprendre، الذي يعني فهم، يتأتى من saisir ensemble أي أمسك معا. وفعل concevoir، أي تصور، يتأتى من prendre avec soi أي أخذ مع الذات. وكلا الفعلين يحيل على استعارة القبضة اليدوية، وهي تفضيء للشيء المفهوم أو المتصوَّر. اللغة المكانية الأولية تنبثق إذن من الجسد الفاعل لا من الهندسة المجردة، فنحن لا نسكن الفضاء المجرد بل أماكن ملموسة محملة بالتاريخ والدلالة. وهذه الأماكن تتمفصل أساسا في اللغة.

3.7 الامتداد الهندسي وشعرية الفضاء

استكشف غاستون باشلار البعد التخييلي والعاطفي للفضاء، معارضا للهندسة الفيزيائية التي تختزل الامتداد في تجانسه المطلق. فقد أكد أن الفضاء المدرك بالتخييل لا يمكن أن يظل نفس الفضاء اللامبالي الخاضع للقياس والتأمل الهندسي[54]. إذن فضاءاتُ الحميميةِ كالبيت والغرفة والسقيفة والقبو لا تختزل في أبعادها المقيسة بل تمتلك حمولة حُلمية وذاكراتية وعاطفية خاصة. فالسقيفة فضاء الصعود والعقلانية النهارية. والقبو فضاء النزول واللاعقلاني الليلي. هذه القيم لا تنبثق من الهندسة بل من التجربة المعيشة والتخييل الثقافي.

قدم باشلار مفهوم التوبوفيليا أي حب الأماكن. فبعض الفضاءات الحميمة كالقوقعة والعش الذي يطلق على المكان المشترك للزوجين ومكان الإنجاب تمتلك قيما عاطفية خاصة تختلف بحسب التجربة الحياتية لكنها تشترك عموما في رمزيتها واشتغالها الظاهراتي. وبهذا تصبح صورا أولية ونماذج أصلية archétypes للفضاء تبني مخيالنا وتتحقق بالضرورة في اللغة الشعرية.

يختلف تحليل باشلار للاستعارة الفضائية عن التوجهات المعرفية cognitivistes، إذ لا تقوم الصور الفضائية حسبه بفهم ما هو مجرد (وظيفة المعرفية)، بل تقوم بالتعبير عما هو عاطفي وعن الحلم وعن اللاوعي (وظيفة شعرية). فالشساعة الحميمة والفضاء الداخلي والفضاء المصغر لا تصف فضاءات هندسية بل حالات نفسية يعبر عنها فضائيا.

8. خاتمة

لقد خلصنا في هذه الدراسة، عبر منظورات متقاطعة، إلى أن الفضاء يملك دلالة إنسانية لا وجود لها بشكل مستقل عن اللغة التي تهيكله وتعبر عنه وتقطعه. هذه الأطروحة تأخذ معناها النسقي من خلال حقول معرفية كثيرة. ففلسفياً، أثبت التقليد الممتد من كانط إلى هيدغر مروراً بكاسيرر أن الفضاء ليس معطىً خاماً لارتباطه بالأشكال الرمزية التي تتجلى لسانياً وتتنوع بتنوع الثقافات. أما سيميائياً، فقد بيَّنا اشتغال المقولات الفضائية وفق نظرية القيمة التي أرساها يلمسليف وطوّرتها مدرسة باريس، وإن خالفها زيلبربرغ بالقول بامتداد الدلالات وتوتّرها. الفضاء في هذا المنظور كيانٌ تُنتجه اللغة. أما لسانياً، فقد أظهر فحص ظروف المكان والأدوات الإشارية وأفعال الحركة أن هذه أن اللغة لا تُسمّي علاقات فضائية سابقة الوجود بل تُنشئها، وأن التباينات اللسانية الجذرية في الأطر المرجعية وأنظمة الظروف أكّدت الطابعَ الثقافي لتقطيعاتنا الفضائية. وأما معرفياً، كشفت الاستعارات المكانية المنتشرة في التفكير التجريدي أن الفضاء يعمل وفق بنية منظِّمة للإدراك، وأن اللغة هي التي تُثبِّت هذه الاستعارات وتنقلها عبر الأجيال. أنثروبولوجياً، أظهرت الدراسات المقارنة تباينات عميقة تمسّ الذاكرة والمخيال، مؤكّدةً ما طرحه سبير وورف من نسبية اللغة، كما هو جلي في المجال الفضائي. وظاهراتياً، تبيّن أننا لا نسكن الفضاء الهندسي المجرد قط، بل أمكنةً معبَّراً عنها لغوياً؛ إذ لا يستمد الفضاء الوجودي الهيدغري والجسدي الميرلوبونتي والشعري الباشلاري بعدَه الإنساني إلا في اللغة وبها.

حين تُستبعد اللغة، يظلّ ثمة فضاءٌ فيزيائي متجانس لا تمييز فيه ولا دلالة، يكون قابلا للصورنة الرياضية لكنه غير صالح للسكن. فإذا كانت الحيوانات تمتلك بنيةً أوليةً تُميّز

وفقها بين الآمن والخطير والمألوف والغريب، فإنها تفتقر إلى التمثّل الرمزي والانتقال الثقافي. والطفل قبل اكتساب اللغة يمتلك قدرات تمييز أوّلية تظل مرتبطةً بالسياق الآني، لكن اللسان يحوّل لاحقاً هذا الإدراك تحويلاً جذرياً. هذا ما لاحظه فيغوتسكي حين أكّد أن الفكر واللغة ينطلقان من جذور مختلفة قبل أن يتقاطعا ويتحوّلا معاً. فالفضائية القبل–لغوية تصبح فضائيةً حقة حين تصيح لسانيةً، لتثير مُغرِقةً في التجريد وقابلة للإسقاط الذهني.

تمتدّ هذه النتائج إلى تخصصات شتى. في التعليم، إذ يرتبط الفشل في الرياضيات بعدم إتقان المفردات المكانية كـ"داخل/خارج" و"متوازٍ/عمودي". في الترجمة، يتطلّب نقل المصطلحات الفضائية إعادة بناء كامل للتشكيل المكاني. أما التقنيات الرقمية فعمّقت الأطروحة ذاتها، ذلك أن الواقع الافتراضي بناءٌ رمزي محض يُختبَر كفضاء ثلاثي الأبعاد قابل للاستقصاء، والاستعارات الفضائية التي تهيمن على لغة الإنترنت من "التصفح" إلى "المواقع" و"العناوين" فلا تصف هذه الفضاءات بل تُشكّلها وتجعلها قابلةً للتفكير والاستعمال.

إضافة إلى هذا، أفرزت كل لغة عالمها الفضائي الخاص، الذي لا يجب اعتباره انعكاساً لواقع سابق بل تمفصلاً أصيلاً للتجربة. هذا التنوع ليس عقبةً بل ثروةٌ أنثروبولوجية يُهدّدها ميلُ العولمة إلى التجانس اللغوي، إذ إن اختفاء أي لغة يجرّ معه زوال نمط فريد من التفضيء لا يُعوَّض.

إذن الفضاء ليس امتداداً هندسياً خالصاً، بل نتاج فعل لساني يجعله حيزا مقطَّعا ومحمَّلا بقيم ثقافية. إنه حيّز غير فارغ، بل مقطوعات تُشكّلها الكلمات التي تسمّيه والسرديات التي تحمّله بالذاكرة والاستعارات التي تربطه بتجربتنا الجسدية والوجدانية. الفضاء هو حيز اللغة، بقدر ما هي حيز له. وفي هذا التفضيء المزدوج يجلّى الوجود الإنساني.

9. الهوامش:

[1] *Cf.* Humboldt, W. von (1836/1974). *Introduction à l'œuvre sur le kavi*. Seuil.
[2] Kant, E. (1781/1997). *Critique de la raison pure*. Presses Universitaires de France, p. 63.
[3] Cassirer, E. (1923/1972). *La Philosophie des formes symboliques*. Éditions de Minuit, tome 3, p.172.
[4] Merleau-Ponty, M. (1945). *Phénoménologie de la perception*. Gallimard, p. 281.

[5] بشير ربوح، *المساءلة النقدية لمفهوم الميتافيزيقا في فضاء اللغة عند مارتن هايدغر*، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ص.328–329.

[6] M. Heidegger, *Introduction à la métaphysique*, Saint Armand, Gallimard, 1967, p.62.

[7] Saussure, F. de (1916/1995). *Cours de linguistique générale*. Payot, p. 166.

[8] Hénault, A. (1997), *Histoire de la sémiologique*, Paris, PUF, pp. 42-43.

[9] Hjelmslev, L. (1943/1968). *Prolégomènes à une théorie du langage*. Éditions de Minuit.

[10] *Ibid*., p.259.

[11] Greimas, A. J., & Courtés, J. (1979). *Sémiotique : Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*. Hachette, p.358.

[12] Fontanille, J. & Zilberberg, (1998) C. *Tension et signification*, Sprimont, Mardaga.

[13] Lotman, Y. (1984/1999). *La Sémiosphère*. Presses Universitaires de Limoges, p.9.

[14] Lotman, Y. (1973). *La Structure du texte artistique*. Gallimard, p.217.

[15] *Cf*. Vandeloise, C. (1986). *L'Espace en français : Sémantique des prépositions spatiales*. Seuil.

[16] *Cf*. Herskovits, A. (1986). *Language and Spatial Cognition: An Interdisciplinary Study of the Prepositions in English.* Cambridge University Press.

[17] Levinson, S. (2003). *Space in Language and Cognition: Explorations in Cognitive Diversity*. Cambridge University Press, p.156.

[18] الزجاجي، حروف المعاني والصفات، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1984، ص 34.

[19] Bühler, K. (1934/1990). *Theory of Language: The Representational Function of Language*. John Benjamins, p. 102.

[20] Benveniste, É. (1966). *Problèmes de linguistique générale, tome 1*. Gallimard, p. 259.

[21] Fillmore, C. (1975/1997). *Lectures on Deixis*. CSLI Publications, p.45.

[22] ابن مالك، جمال الدين، *شرح الكافية الشافية، مكة المكرمة*، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، 1982م، ج.1.، ص.315.

[23] الفارضي، شمس الدين، *شرح الإمام الفارضي على ألفية ابن مالك*، بيروت، دار الكتب العلمية، 2018م، ج.1، ص.209.

[24] ابن الحاجب، عثمان بن عمر، *أمالي ابن الحاجب*، الأردن وبيروت، دار عمار ودار الجيل، 1989م، ج.2، ص.768.

[25] ابن بابشاذ، طاهر بن أحمد، *شرح المقدمة المحسبة*، الكويت، المطبعة العصرية، 1977م، ج1، ص.169.

[26] ابن جني، أبو الفتح عثمان، *اللمع في العربية*، الكويت، دار الكتب الثقافية، ص.104.

[27] الأنباري، أبو البركات، *أسرار العربية*، [د.م]، دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1999م، ص.274.

[28] الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، [د.م]، المكتبة العصرية، 2003م، ج.2، ص.589.

[29] Talmy, L. (1985). Lexicalization Patterns: Semantic Structure in Lexical Forms. In T. Shopen (Ed.), *Language Typology and Syntactic Description, Vol. 3* (pp. 57-149). Cambridge University Press, p. 69.

[30] Slobin, D. (1996). From "Thought and Language" to "Thinking for Speaking". In J. Gumperz & S. Levinson (Eds.), *Rethinking Linguistic Relativity* (pp. 70-96). Cambridge University Press, p.76.

[31] Desclés, J.-P., & Guentchéva, Z. (1993). Discourse Analysis of Aorist in Bulgarian and French. In J. Danon-Boileau & M.-A. Morel (Eds.), *Grammaire et cognition* (pp. 109-128). Ophrys, p.112.

[32] يُنظر: البكري، أبو عبيد (ت 487 هـ)، *سمط اللآلي في شرح أمالي القالي* (ومعه ذيله)، تحقيق: عبد العزيز الميمني، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ج. 1، ص. 956.

البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093 هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط4، 1997م، ج. 9، ص.470.

[33] Fauconnier, G., & Turner, M. (2002). *The Way We Think: Conceptual Blending and the Mind's Hidden Complexities*. Basic Books, p.40.
[34] Johnson, M. (1987). *The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination, and Reason*. University of Chicago Press, p.29.
[35] Gibbs, R. (2006). *Embodiment and Cognitive Science*. Cambridge University Press, p.112.
[36] Núñez, R., & Sweetser, E. (2006). With the Future Behind Them: Convergent Evidence From Aymara Language and Gesture in the Crosslinguistic Comparison of Spatial Construals of Time. *Cognitive Science*, 30(3), 401-450., p.403.
[37] Levinson, S. (2003). *Space in Language and Cognition: Explorations in Cognitive Diversity*. Cambridge University Press., p.24
[38] *Ibid*., p.89.
[39] Hutchins, E. (1995). *Cognition in the Wild*. MIT Press., p.67.
[40] Basso, K. H. (1996) . *Wisdom Sits in Places: Landscape and Language among the Western Apache*. University of New Mexico Press, p. 23.
[41] Carter, P. (1987). *The Road to Botany Bay: An Exploration of Landscape and History*. Knopf, p. 45.
[42] Barthes, R. (1970). *S/Z*. Seuil, p.16.
[43] Genette, G. (1987). *Seuils*. Seuil, p.9.
[44] Mallarmé, S. (1897/2006). Un coup de dés jamais n'abolira le hasard. In *Œuvres complètes, tome 1* (pp. 363-387). Gallimard, p.455.
[45] Souchier, E. (1998). L'image du texte : pour une théorie de l'énonciation éditoriale. *Les Cahiers de médiologie*, 6, 137-145, p.137.
[46] نتبنى هنا هذه الترجمة لرواجها، وإن كانت تطرح مشاكل مفهومية كثيرة.
[47] Nielsen, J. (2000). *Designing Web Usability*. New Riders, p.189.
[48] Genette, G. (1972). *Figures III*. Seuil, p. 206.
[49] Bal, M. (1977). *Narratologie : Essais sur la signification narrative dans quatre romans modernes*. Klincksieck, p.102.
[50] Hamon, P. (1981). *Du descriptif*. Hachette, p.89.
[51] Bakhtine, M. (1978). *Esthétique et théorie du roman*. Gallimard, p.237.
[52] Heidegger, M. (1927/1986). *Être et Temps*. Gallimard, p.102.
[53] Merleau-Ponty, M. (1945). *Ibid*., p. 97.
[54] Bachelard, G. (1957). *La Poétique de l'espace*. Presses Universitaires de France, p. 17.